صادتْ جدي

عمر فتال - المغرب

كانت أحب لحظة إلى قلبي هي تلك التي يدعوني فيها جدي إلى الذهاب معه إلى السوق الأسبوعي . كنت حينها أشعر بفرح منقطع النظير لأنني اعتدت أن أقضي أزيد من ساعتين خادما طائعا لجدي العزيز .

فور وصولنا إلى السوق نقصد الدكان الذي ألف الجلوس مع صاحبه متجاذبين أطراف الحديث حتى إذا مرت على جلسته تلك نصف ساعة أو أكثر دعاني فأقف أمامه ثم لا يلبث أن يخرج حافظة نقوده ويبدأ في وضع قطع نقدية في يدي قائلا : « هذه أعطها للشيخ الفلاني، وهاته للمرأة الفلانية، وفي طريق عودتك ناول هذه فلانا .. »

أقوم بما أمرني به على جناح السرعة وعندما أعود أجده قد هيأ قطعا نقدية أخرى ومعها أسماء محتاجين آخرين، وغالبا ماكنت أطوف السوق بكامله لإيصال الصدقات إلى أناس اعتاد جدي أن يعطيها لهم بنفسه قبل أن يستعين بالعكاز أثناء تنقله، من يومها أصبحت يده اليمنى التي توصل هاتيك الصدقات إلى مستحقيها حتى إذا أنهيت المهمة على أحسن وجه ودع جدي صاحب الدكان لنلج بعد هذا باب المسجد القريب من السوق منتظرين أداء صلاة الجمعة .. عندما مات جدي - رحمة الله عليه - حير حزني الشديد عليه والبكاء المر والديّ وجدتي وعمتي، وكان أصعب الأيام على قلوبهم هو يوم الجمعة، فقد كنت أقضي صباح ذلك اليوم متحدثا بصوت باك حزين عن كل ما كان يفعله جدي : « هذه الساعة التي كنا نغادر فيها البيت .. في هذه اللحظة بالذات أنا في الطريق إلى تسليم أم أحمد نصيبها .. الآن أنا أمام جدي وقد أخرج قطعة نقدية أخرى .. هذا هو الموعد الذي نغادر فيه الدكان .. » « أسرد هذا وغيره فتبكي أمي وترجو مني عمتي دامعة العينين أن أكف عن الكلام وتضمني جدتي إلى صدرها وهي تصارع العبرات التي توشك أن تسيل على خديها، وحينما يعود أبي يخبرنه بكل ما حدث فيبكي هو الآخر. ومايلبث أن يختلي بي ثم يوصيني وكله أمل في أن يصرفني عن تذكر ما اعتاد جدي فعله . أعده صادقا بأنني سأنسى ذلك، ولكنني كنت في كل مرة أخلف وعدي إذ ما يحل صباح يوم الجمعة حتى أبكي وأبكي كل أهل الدار جميعا ..

مر على حالتي تلك شهران كاملان، وفي أحد الأصباح وقبل أن يغادر أبي المنزل دعاني فلبيت الدعوة، وفي الحال وضع في يدي مجموعة من القطع النقدية وهو يقول : في استطاعتك اليوم أن تذهب إلى السوق الأسبوعي .. لم أتردد لحظة لما قلت مستغربا !: وماذا سأفعل في السوق ؟ !

ابتسم في وجهي قائلا في هدوء : افعل ما كان يأمرك جدك - رحمه الله - بفعله .

خفق قلبي خفقات متلاحقة وأنا أسمع : جدك، تريثت هنيهة قبل أن أستلم القطع النقدية ..

في السوق سلمتها إلى مستحقيها تماما كما كنت أفعل أيام مصاحبتي لجدي رحمه الله تعالى . قبيل التحاقي بالمصلين بالمسجد القريب من السوق الأسبوعي توقفت برهة أمام الدكان، ولم أدر لماذا أحسست وكأن جدي ما زال جالسا على كرسيه في المكان عينه الذي كان يجلس فيه ..

في المنزل فرح أهل الدار كثيرا عندما حدثتهم هذا اليوم ضاحكا مبتهجا .. أما في الأسابيع الموالية فقد كانت إلى جانب القطع النقدية التي سلمني أبي قطع نقدية أخرى ناولتني إياها جدتي وأمي وعمتي! لا بل أضفت إليها قطعا من مصروف جيبي. فقد أصبحت أنتظر حلول يوم الجمعة بفارغ الصبر لأتصدق على أولئك المحتاجين، وأسمع منهم هذا الدعاء الجميل : رحم الله جدك ■